أبو محمد علي بن حزم
جوانب ذاتية في نظمه ونثره

الدكتور عمر بوخاري، جامعة ابن خلدون تيارت

الملخص: تتلخص الدراسة حول الجوانب الذاتية لابي مُحَّد علي ابن حزم في النظم والنثر ، ففي الشعر احتوت على تلك الردود التي واجه بها أصدقاءه وخصومه على نمط السياقات الشعرية التي وردت إليه ، وأحيانا برويّها ، وبأضعاف ما وردت إليه ، كالقصيدة التي ردّ بها على نقفور ، وكذلك فعل في النثر الذي إشتملت عليه رسائله في الجدل ، أو في نفي ما ألصق به من تهم وصفات لا تليق بشخصه.

Abu Muhammad Ali bin Hazm self-aspects in Poetry and prose

Abstract: This study summarizes the self-aspects of Abi Muhammad Ali Ibn Hazm in the poetry and prose. In poetry, it contained responses with which he faced his friends and opponents in the poetic contexts which were sent to him, and he sometimes makes into prose as double response, such as the one to the Naqfour. He also acts in prose that included his messages in the controversy or in the denial of the charges and attributes that are not suitable for him.

تقديم: يعد إبو مُحَّد علي إبن حزم أحد أعلام الاندلس البارزين في عصر الطوائف ، وممن كان لهم قصب السبق في بناء صرح الحركة الفكرية فيها ، وكان قبل ذلك أعمق الناس إحساسا بالفتنة التي عصفت ببلاده ، فقد باغتته وهو شاب في مقتبل العمر ، فقد جرفته من حيّز الترف والنعيم الذي ظلّ يرفل فيه أيام طفولته ، ورمت به إلى قاع الذلّ والهوان ، وبالرغم من التغير المفاجئ ، إلاّ أنّه تجلّد وعرف كيف يتجنب سُعارها ، ويسلك طريقا إجتنابيا وظف فيه ملكاته الرائعة ، وشغل بأفكاره وأرائه خصومه ومحبّيه .

وإن الناظر بإمعان إلى ما خلّفه إبن حزم من مصنفات ليُدرك أن الرجل نظر وقدّر في شؤون عصره ، أن الفتنة التي أصابت بلاده الاندلس ، ضربت جميع مقدّارات وطنه ، السياسية ، والثقافية والدينية ، فإنبرى مدافعا ، ومنافحا تارة ، ومجادلا عن دينه وعن قناعاته الفكرية ،تارة أخرى ، وما تبنيه للمذهب الظاهري الذي إنفرد به في الاندلس ، إلاّ مدافعةً ومغالبةً لمن يسلكون طرقا للغوص في النص القرآني بالرأي ،والقياس ، والتعليل ، وما إلى ذلك من الأليات التي هي في نظر إبن حزم مداخلَ لأصحاب النحل والأهواء ، والآراء ، والفلسفات ، فأوصد الأبواب أيما إيصاد ، حتى لاقى في ذلك مضايقات ، وسجن وتعذيب ، وإحراق لكتبه ، ونفي وتغريب في بادية لبلة أين مات وحيداً . وكان إبن حزم طوال هذه المدّة قائما بنفسه

على التصدي والرد ، جاعلا من نظمه ونثره ملاذا وبلسما عبّر فيه عن همومه وأحزانه ، وشرفة سدد منها سهامه نحو أعدائه .

من هو ابن حزم؟ هو علي أبو مُحَمَّد بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي ، وهو النسب الذي قرئ على صاحب المعجب ، وقد وجد على ظهر كتاب من تصانيفه[1] .

وفي رسالة بعث بها إلى صاعد الأندلسي صاحب كتاب " طبقات الأمم" ولدت في قرطبة في الجانب الشرقي في ربض منية المغيرة ، قبل طلوع الشمس ، وبعد تسليم الإمام من صلاة الصبح آخر ليلة الأربعاء ، آخر يوم من شهر رمضان المعظم ، وهو اليوم السابع من نوفمبر سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بطابع العقرب [2] .

قضى علي بن حزم معظم سن طفولته في منية والده — الذي كان يشغل منصب الوزارة أيام المنصور بن عامر- بين الجواري فهنّ اللواتي علمنه القرآن وروينه الأشعار ، ودربنه على الخط ، وهو لم يعرف مخالطة الرجال حتى سن الشباب ، وقد جعلته هذه النشأة رقيقا دمثا في شبابه ، وطبعته على مناصبة الحذر وسوء الظن بالنساء[3] ، وهو القائل: "فلم أزل باحثا عن أخبارهن كاشفا عن أسرارهن ، وكن أنسن مني بكتمان ، فكن يطلعنني على غوامض أمورهن ، ولولا أن أكون منبها على عورات يستعاذ الله منها لأوردت من تنبههن في السر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباب[4] .

ظل ابن حزم على هذه الحال من العناية ، والترف في كنف والده إلى غاية الفتنة القرطبية ، قال وهو يصف الحالة التي آلت إليها عائلته ، وأقرباؤه :" ثمّ شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والترقيب والاغرام الفادح والاستتار ، وأررزمة الفتنة وألقت باعها وعمت الناس ، وخصتنا إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الحال ."[5] ولم تبرح الفتنة بلاد الاندلس إلاّ بعد طافت على معظم أرجائها ، وعصفت بمدينتهم قرطبة وأتت على كل منظر جميل فيها ،: "وطمست أعلامها وضيقت معالمها وغيّرها البلى وصارت صحاري مجدبة بعد العمران وفيافي موحشة بعد الأنس"[6]

وما كاد ابن حزم يتجاوز يفاعته حتى رزئ بموت والده ، وفقد بذلك سندا قويا ، وظهيرا واقيا ، وما زاد في نكبته دخول البربر مدينتهم ونهب ممتلكاتهم ، ودورهم واستيطانها.

غادر ابن حزم ديار قرطبة ، ولم يعد إليها إلا بعد موت المرتضى ، الذي علق عليه ابن حزم آماله في إسترجاع مجد الأمويين ، فألفاها خالية من أصدقائه ومحبّيه ، فبكاها بحرقة ورثاها

في قصائده التي أظهر فيها حزنه وإنكساره على هذه المدينة التي ألقى فيها بنو أمية عصى ترحالهم ، بعد أن طردهم العباسيون من المشرق.

فيا خير دار قد تركت حميـــــدة سقتك الغوادي ما أجلّ وما أسـرى

ويا دهرنا فيها متى أنـــت عـائد فنحمد منك العود إن عدت والكرا

سأندب ذاك العهد ما قامت الخضرا على الناسسقفا واستقلت بنا الغبرا

كانت هذه النكبة التي حلت بابن حزم فاتحة عهد جديد ، سلك فيه طريقا مغايرا انكب فيه على العلم ، حتى حصل في مدة قصيرة ما لا يحصله غيره في العمر الطويل ، ولعل انقطاعه للعلم أكسبه قصر الأمل من الحياة السياسية[7] التي لم يخرج منها بطائل .

إنّ مناخ السياسة الذي أُشربه ابن حزم في طفولته ، فقد تدحرج مع رجال بني أمية وأعلامها. وآل الوضع إلى جيل آخر ، لم يحسن ابن حزم التناغم معه ، وآثر العيش في أجواء العلم متنقلا بين مدن الأندلس ، بين زائر لأترابه من العلماء وطلاب العلم ، ومجادلا لزعماء الأديان أمثال ابن النغزالة اليهودي وزير صاحب غرناطة باديس بن حبوس ، ومما لا شكّ فيه ، فإنّ المجادلات المتواصلة ، والحادة هي التي ألّبت بعضا من ملوك الطوائف عليه ، ومنهم المعتضد بن عباد الذي أقدم على حرق كتبه[8] ، وهي الكتب التي أنفق فيها ابن حزم عمرا طويلا في تأليفها ، وكانت من الكثرة ما لم يستطع أحد أن يأتي بمثلها في تاريخ الإسلام إلا ابن جرير الطبري يقول صاحب المعجب: "بلغني من غير واحد من علماء الأندلس أن مبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والأصول والنحل وملل وغير ذلك في التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين له — نحو من أربعمائة مجلدا تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ، وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في مدة الاسلام تصنيفا إلا لأبي جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري"[9].

ومن مؤلفاته التي ضاع الكثير منها ، وقد ذكر المقري في كتابه نفخ الطيب بعضا منها:

- "الفصل بين أهل الأهواء والنخل "وكتاب" الصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على فرق التقليد" وكتاب "شرح كتاب الموطأ والكلام على مسائله" وكتاب "الجامع في صحيح لحديث باختصار الأسانيد والاقتصار على أصحابها" وكتاب "التلخيص والتخليص في المسائل النظرية وفروعها التي لا نص عليها في الكتاب والحديث" وكتاب "منتقى الإجماع وبيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف" وكتاب "الإمامة والخلافة في سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها " وكتاب "أخلاق النفس" وكتاب "الإيصال إلى فهم الخصال كتاب الخصال" وكتاب "الالتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس"[10]

ولم يسلم ابن حزم من سهام خصومه الذين ألّبوا عليه الحكام والأمراء والعامة من الناس ، وجدّوا في إذايته: "وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه ، فطفق الملوك يقصونه من قربهم ويسيرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة ... وهو بذلك غير مرتدع ولا راجع إلى ما أرادوا به يبث علمه في من ينتابه ببادیته تلك"[11]

وفي الوقت نفسه نال ابن حزم فخامة العلماء وثناؤهم عليه حيث شهدوا له بالرسوخ والجهبذة في شتى العلوم العقلية والنقلية ومن هؤلاء تلميذه الحميدي الذي قال فيه: "وما رأينا مثله رحمه الله في ما اجتمع له مع الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين... وكان له في الأدب والشعر نفس واسع ، وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وشعره كثير"[12] وقال عنهه ابن بسام: "كان البحر لا تكف غواربه ، ولا يروي سرابه"[13]

وقال معاصره ابن حيان: "كان أبو مُحَمَّد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب ، مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة"[14].

وفي البغية قال عنه الضبيّ: "كان حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه متبسطا للأحاكم من الكتاب والسنة متفننا في علوم جمّة عاملا بعلمه زاهدا في الدنيا بعد الرئاسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الممالك ، متواضعا ذا فضائل جمة وتواليف كثيرة في كل ما تحقق من العلوم ، وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمستندات شيئا كثيرا وسمع سماعا جمًّا" [15]

- وقال عنه الذهبي: "..وكان إليه المنتهي في الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر ، مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب"[16]

كما أدرجه الفتح بن خاقان في المطمح ضمن أعلام القرن الخامس الهجري وقال "فقيه مستنبط ، ونبيه بقياسه مرتبط ، ما تكلم تقليدا ولا تعدى اختراعا وتوليدا ، ما تمنت به الأندلس أن تكون كالعراق ، ولا حنت الأنفس معه إلى تلك الآفاق ، أقام بوطنه ، وما برح عن عطنه.... تفرد بالقياس وأقتبس نار المعارف أي اقتباس ، فناظر بها فيلق وقياس وصنف وجدّ حتى أفنى الانفاس ، ونبد الدنيا وقد تصدت له بأفتى محيا ، وأهدت إليه أعبق عرفا ورديا ، وخلع الوزارة وقد كسبته ملاها ، وألبسته حلاها ، وتجرد للعلم وطلبه وجد في إقتناء نخبه ، وله تآليف كثيرة وتصانيف أثيرة"[17].

مدحه صديقه صاعد الأندلسي: "كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار".[18]

ولأبي حامد الغزالي توقيع على كتاب لإبن حزم في أسماء الله تعالى فعلق قائلا: "وجدت في أسماء الله تعالى كتابا لأبي مُحَمَّد ابن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه"[19]

جوانب ذاتية في نظمه.

تجدر الاشارة قبل الحديث عن النصوص الشعرية التي حفظت لنا جوانب ذاتية من حياة ابن حزم ـ الاشارة إلى شعره الذي تميز بالسرعة والبديهة ، وهي ميزة قلما نجدها فيمن عاصره من الشعراء والأدباء ، يقول عنه تلميذه ومريده الحميدي: "وكان له في الادب والشعر نفس واسع ، وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير " [20].

وفي مقدمة ما يمكن تسجيله من الجوانب الذّاتية ، هي تلك القصيدة الطويلة التي خاطب بها قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمان بن أحمد بن بشر[21] ، يفخر فيها بالعلم ، وفيها يبرز جانبا مهما من شخصيته ، وهو القائل:

أنا الشمس في جوّ العلوم منيرة ولكن عيبي أنّ مطلعي الغرب

ولو أنني من جانب الشرق طالع لجدّ علي ضاع من ذكري النهب

ولي نحو أكناف العراق صبابة ولاَغرو أن يستوحش الكلف الصبُّ

فإن ينزل الرحمان رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسّف والكرب

هناك يدرى أنّ للبعد قصة وأن كساد العلم آفته القرب[22]

وفي القصيدة التي أظهر فيها علو همّته وهي تتمدد وتتمطى ، وتتسمى لتبلغ الآفاق ، وهو يمني نفسه ببلوغ المرام ،والمنزلة التي وعدها الله لعباده العاملين ، بالدعوة الى اليه سبحانه ، والجهاد في سبيله ، وأن يختم له بالشهادة .

مناي من الدنيا علوم أبثها وأنشرها في كلّ باد وحاضر

دعاء إلى القرآن والسنن التي تناسى رجال ذكرها في المحاضر

وألزم أطراف الثغور مجاهدا إذا هيعة ثارت فأول نافر

لألقى حمامي مقبلا غير مدبر بسمر المعالي والدقاق البواتر

كفاحا مع الكفار في حومة الوغى وأكرم موت للفتى قتل كافر

فيا رب لا تجعل حمامي بغيرها ولا تجعلني من قطين المقابر[23]

ولإبن حزم نظرته الفلسفية في حقيقة الدهر ، ومستبقياته على الانسان ، وكيف يظل في نزاع لا ينته ،بين حنين الى ماض أفل ، وشغل بالحاضر ، وبين إغتمام لما يأتي ، ولعلّه عايش هذه المتجذبات وإرتسمت في أدبياته وأشعاره ، وهو القائل:

هل الدهر إلاّ ما رأينا وأدركنـــــا فجائعه تبقى ولذّتـــــــه تفنى

إذا أمكنت فيه مسرة ساعة تولت كمر الطرف وإستخلفـــت حزنا

إلى تبعات في المعـــــاد وموقف نود لديــه أننا لم نكـــــن كنا

حصلنا على همّ وإثم وحســـــــرة وفات الذي كنا نلذّ بـــــه عنّا

حنين لما ولّى ، وشغل بمـــــا أتى وغم لمايرجى ، فعيشـــك لا يهنا

كأنّ الذي كنا نُسر بكـــــــونه إذا حققته النفس لفظ بلا مـــــعنى[24]

وفي ردّه على المنكرين صفات ميول الحبّ والهوى عليه ، وبأنه خلق تولد مع الخلق ، وبأنّه طبع جبلت عليه الخليقة ، وبأنه لا يؤمر به ولا ينهى عنه ، وإنما يملك الانسان حركات جوارحه المكتسبة وفي هذا يقول:

متى جاء تحريم الهوى عـــــــن مُحَمَّد وهل منعه في محكم الذكـــر ثابت

إذا لم أواقع محرما أتقـــــــــي به مجييء يوم البعث والوجـــــه باهت

فلست أبالي في الهـــــوى قول لائم سواء لعمري جاهـــــر أو مخافت[25]

وفي حفظ الوداد الذي كان بينه وبين عبيد الله بن عبد الرحمان بن المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وكان صديقا له ، بعث له بخطاب فيه من الرشح الادبي وسمو البلاغة ، يبين فيه ما يضمره لصديقه من الود ، والاخلاص ، وهي عادة نادرة في الافصاح عنها ، إلاّ إذا كانت نابعة من الأعماق وفي إعرابه عن ذلك يقول:

أودّك ودّاً ليس فيــه غضاضـــــــة وبعض مودات الرجال ســـراب

محضتك النصح الصريح وفي الحشى لودك نقش ظاهر وكتـــــــــاب

ومـالي لغير الودّ منـــــــك إرادة ولا في سواه لي إليـــــــك خطاب

إذا حزته فالأرض جمعـــــاء والورى هباء وسكان البـــــــلاد ذباب[26]

وفي سجنه الإنفرادي ، يثور القريض بخاطره ، فتنبعث تأوهاته وتوجعاته عبر سقايات شعرية ، منبلجة من أعماقه يعبر فيها عن شوقه وحنينه الى أهله وولده ، فيقول:

مسهد القلب في خديه أدمعه فلطلما شرقت بالوجد أضلعـه

داني الهموم بعيد الدّارنازحها رجع الأنين سكيب الدمع مفزعه

يأوي إلى زفرات لو يباشرها قاسي الحديد فواقا ذاب أجمعه

يا راحلا عند حيّ عنده رمقي إقرأ سلامي على من لم أودعـه

وسله بالله عن عهدي أيحفظه فعهده بمكـــان لا أضيّعـه[27]

وهو في مواضع كثيرة لا يفتأ يذكر تعففه ، وتنزّهه عما يدنس دينه وعرضه ، آيسا من جملة البشر ، زاهداً فيما عندهم .

جعلت اليأس لي حصنا ودرعاً فلم ألبس ثياب المستضام

وأكثر من جميع الناس عندي يسير صانني دون الانام

إذا ما صح لي ديني وعرضي فلست لما تولّى ذا إهتمام

تولى الامس والغد لست أدري أأدركهففيما ذا إغتمام[28]

ومن البلايا التي إنضافت إلى مآسيه ، إحراق أحمال كتبه من قبل المعتضد بن عباد ، فقابل ذلك بهمة عالية ، متحديا خصومه ، بأنّ الذي أقدموا عليه إنما هو ما إحتواه الرق ، والورق أما ما أرادوا محوه هو في صدره ، فإنبرى قائلاً:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث إنتقلت ركائبـي وينزل إن أنزل ويـدفن في قبري

دعوني من إحراق رقّ وكـاغد وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

وإلاّ فعودوا في المكاتب بـدأه فكم دون ما تبـغون الله من سرّ[29]

وفي القصيدة التي بعث بها نقفور[30] إلى الخليفة المطيع لله التي نظمها له بعض كتابه ، ممن إنسلخوا عن عقيدتهم وإرتمو في أحضان الصلبيين ، وهي قصيدة مشحونة بالسباب ، والتشفي بالمسلمين والاستهزاء بدينهم ونبيهم مُحَمَّد ﷺ ، يزعم فيها صاحبها الانتصار لدين المسيح ، يذكر إبن كثير أنه لم يسجل في عصره من ردّ عليه قائلا :" ولم يبلغني عن أحد من أهل ذلك العصر أنّه ردّ عليه جوابه ، ربما أنّها لم تشتهر ، أو أنّهم رأوا أنه أقل من أنه يردوا خطابه ، لأنّه المعاند الجاحد وقد إنخى للجواب عنها فيما بعد ذلك أبو مُحَمَّد الظاهري فأفاد وأجاد عن كلّ فصل باطل بالصواب والسداد ، فبلّ الله بالرحمة ثراه وجعل الجنة متقلبه ومثواه "[31].

وهي قصيدة طويلة فاقت ستين بيتا ، منها هذه الابيات:

إلى حلب حتى إستبحنا حريمها وهدمنا منها سورها كلّ هادم

أخذنا النساء ثمّ البنات نسوقم وصبيانهم مثل الممالك خادم

وقد فرّ عنها سيف دولة دينكم وناصرها منّا على رغم راغم

وردّ ابن حزم ردّاً مفحما ، وجثم على القصيدة ، حتى شدّ أنفاسها ، قال إبن كثير :" وهذا جوابها لأبي مُحَمَّد ابن حزم الفقيه الظاهري الاندلسي قالها إرتجالا حين بلغته هذه الملعونة ، غضبا لله ولرسوله ، كما شاهده من رآه فرحمه الله وأكرم مثواه " [32]

وثبتم على أطرافنا عند ذاكـــمُ وُثوب لصوص عند غفلـــة نائمِ

ألم ننتزع منكم بأيد وقـــــــوة جميع بلاد الشام ضربـــــــــة لازم

ومصر وأرض القيروان بأسرها وأندلسا قسرا بضـــــــرب الجماجم[33].

جوانب ذاتية في نثره:

لم تقتصر الجوانب الذاتية لإبن حزم على منضومته الشعرية ، التي حملت أفكاره ومواقفه الدينية والسياسية ، بل ظهرت جلية في سياقاته النثرية ، التي عبر فيها عن أرائه الفكرية ، وتبريراته السلوكية .

ولم يمنعه الإفصاح عن تغير مزاجه ، وتحول طباعه وسلوكه المألوف في مرحلة من حياته ، حين يقرّ أن ذالك عائد إلى عوارض الدنيا المادية والجسدية التي تعترض الإنسان إذ يقول:" فقد تتغير الأخلاق الحميدة بالمرض وبالفقر ، وبالخوف والغضب ، وبالهرم وأرحم من منع ما منحت ولقد أصابتني علّة شديدة ، ولّدت عليّ ربوا في الطحال شديدا فولد ذلك عليّ من الضجر ، وضيق الخلق ، وقلة الصبر والنزق ، أمرا حاسبت نفسي فيه ، إذ أنكرت تبدل خلقي ، وإشتدّ عجبي من مفارقتي لطبعي ، وصح عندي أن الطحال موضع الفرح فإذا فسد تولد ضده"[34].

ولا يتوقف إبن حزم عن ذكر معاناته الشديدة مع من أخلصه المودة ، وطول الصحبة ، كيف يضرب الذكر صفحا عن أيام خلت من المودة وحسن المعاشرة ، ويذكر ذالك بمرارة فيقول: "وأنا أعلمك أن بعض مَن خالصني المودة وأصفالي إياها غاية الصفاء في حال الشدّة والرخاء ، والسعة والضيق ، والغضب والمرض ، تغيّر علي أقبح تغيّر بعد إثني عشر عام متّصلة في غاية الصفاء ليست تطيق بدّاً ما قدّرت قط أنّه يؤثر مثله في أحد من الناس ما صلح لي بعدها ولقد أهمني سنين كثيرة همّاً شديداً ".[35]

ومن أسرار النساء ، وما يحكنه من خيوط لإستجلاب الهوى ، كلام طويل وعريض ومنه :" ...فلم أزل باحثا عن أخبارهن ، كاشفا عن أسرارهن ، وكنّ قد أنسن مني بكتمان ، فكن

يطلعنني على غوامض أمورهن ولولا أن أكون منبها على عوارات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبههن ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباب "[36]

وفي رسالة بعث بها إليه أحد أصدقائه ، حلّ أسطرَها بالثناء ، والإطراء بما هو أهل له وجدير ، فردّ عليه إبن حزم قائلاً: "أما بعد فإنّ كتابكم ورد عليّ وفي أوله وصفكم لي بما لست أهله عند نفسي ولكني أحدث بنعمتي الله تعالى عليّ مؤثرا الامر إذ يقول عزّ وجل " وأمّا بنعمة ربّك فحدث "[37] . ويسأل صديقه أن يلتمس له الدعاء عند الله في السجود " أن تسألوه تعالى لي ولكم أن يحقق في سجودكم في أواخر ليلكم أن يجعل ما وضع عندنا من مادة الفهم في دينه فتنة لنا في دينه ولا حجة علينا في الاخرة "[38].

وعلى شدة ضعفه أمام الجمال ، وما كان له من مخالطة النساء منذ يفاعته إلى الشباب ، فإنّه لم يتورط في المحرمات وهو القائل: " .... يعلم الله أني بريئ الساحة سليم الاديب صحيح البشرة نقي وإني أُقسم بالله أجلّ الأقسام ما حللت مئزري على فرج حرام قط "[39].

وفي كتاب "الاخلاق والسيّر" الذي أدرج فيه إبن حزم ميول النفس وضوابطها وموانع الاهواء ، وتشخيصات وبيانات دلّت على عبقريته في معرفة طبائع البشر منها قوله :" تطلبت غرضا إستوى الناس كلهم في إستحسانه وفي طلبه فلم أجده إلاّ واحدا وهو طرد الهم ، فلمّا تدبرته علمت أن الناس كلهم يستووا في إستحسانه فقط ـ ولا في طلبه قط ـ ولكن رأيتهم على إختلاف أهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم وإرادتهم لا يتركون حركة أصلا إلاّ إلاّفيما يرجون به طرده ينطقون كلمة أصلا إلاّفيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم "[40]

وفي رده على من أَطلق لسانه في شخصه ، ونشر عيوبه ، وشنع به ، أقوال مفحمة ، متسامية عن الساقط من القول ، خالٍ من الشتم والسباب ، حيث يقول: "... وإما أن يكون عايبني بما يظن أنّه عيب ، وليس عيبا فقد كفاني جهله شأنه وهو المعيب لا من عاب ، وإما أن عايبني بعيب هو في على الحقيقة وعلم مني نقصاً أطلق به لسانه فإن كان صادقا فنفسي أحق بأن ألوم منه وأنا حينئذ أجدر بالغضب على نفسي مني علي من عايبني بالحق ، واما أمر إخواني فإني لست أمسك عن الامتعاض لهم لكن أمتعض إمتعاضا رفيقا"[41]

وفي رسالة بعث بها الى أحد أصدقائه ، يعدد فيها نكبات الدهر التي قلّبت له ظهر المجن ، وأحالت أيامه نكدات ، وإعوز فيها النصير وقلّت دواعي المنى ،وانزلته من شامخ عزه الذي ظلّ يرفل فيه أيام بني أمية ، عقودا من الزمن وهام في أرض الاندلس وحيداً وقال في ذلك :" فأنت تعلم أنّ ذهني وبالي متهصر بما نحن فيه من نبو الديار والخلاء عن الاوطان وتغير الزمان ، ونكبات السلطان وتغير الاخوان وفساد الاحوال وتبدل الايام وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد وإقتطاع مكاسب الاباء والاجداد والغربة في البلاد "[42].

وبالرغم من الشنآن الذي كان بينه وبين خصومه من أصحاب الاقلام لم يمنعه ذلك من الاعتراف لهم بالرسوخ في القرائح والعلوم ، مثلما فعل مع أبي الوليد الباجي قائلا: " لولم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب إلاّ أبي الوليد الباجي لكفاهم "[43].

وعلى أي حال ،فإن ما استقصي من مادة تاريخية في النص الشعري ، والنثري لأبي مُحَمَّد علي بن حزم ، حول الجوانب الذاتية ، في هذه الورقة ، قسمة قليلة من تراثه الفكري .إن الجوانب المستقاة من هذا التراث هي بلا شك مادة مصدرية في الكتابة التاريخية ، ورافداً مهماً لكثير من الفراغات التي يصادفها المؤرخ بين السياقات في بناء النص التاريخي.

الهوامش:

1- المراكشي عبد الواحد/ المعجب في تلخيص أخبار المغرب تحقيق صلاح الدين الهواري ، المكتبة لعصرية ببيروت ط 1416 — 2006 ص 43.

2- ابن شكوال — كتاب الصلة في تلخيص أخبار المغرب تحقيق صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية ببيروت ط 1423- 2003 ص 334.

3- ابن حزم أبو مُحَمَّد/ طوق الحمامة بين الألفة والآلاف ، تحقيق فاروق سعد ، دار مكتبة الحياة 1975 ص 141.

4- نفسه ، ص 284.

5.إبن حزم ، المصدر السابق ، ص251.

6- نفيه ، ص 220

7- إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ، دار الثقافة ببيروت 1960 ص 254.

8- ابن بسام الستريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق سالم مصطفى البدري ، دار الكتاب العلمية ، بيروت 1419-1998 ج 1 ص105.

9- المراكشي عبد الواحد ، المصدر السابق ، ص 44.

10- المقري التلمساني ، نفخ من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت ، 1388 — 1968 ، ج2 ص 79.

11- ابن بسام الشتريني ، المصدر السابق ، ج1 ص 103.

12- الحميدي ، خدوة مقتبس في ذكر ولاة الأندلس/ تحقيق صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية بيروت 1425 هـ، 2004 م ط 1 ،ص 302

13- ابن بسام ، نفسه ج 1 ص 103.

14- نفسه ج 1 ص 103.

15- الطبي بن عميرة / بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس ، تحقيق صلاح الدين الهواري المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1 1426-2005 ص 386

16- المقري التلمساني المصدر السابق ، ج2 ص11 .

17- ابن خاقان الفتح ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلح أهل الأندلس

18- المقري تلمساني ، المصدر السابق ج 1 ص 364.

19- نفسه ، ج1 ص 364.

20.الحميدي ، المصدر السابق ، ص 302

21. عبد الرحمان بن حمد بن بشر: قاضي الجماعة بقرطبة ، فقيه عالم وأديب ، ذكره أبو علي بن أحمد ، وأثنى عليه ، والذي خاطبه بالقصيدة البائية التي يفخر فيها بنفسه وعلومه وفيها:

ولو أنني خاطبت في الناس جاهلا لقيل دعا ولا يقيم لها صـلب

ولكنني خاطبت أعلم من مشـى ومن كلّ علم فهو فيه لنا حسب

الضبيّ بن عميرة ، بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس ، تحقيق صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية ، 1426/2005 ، ص 333

22 . المرّاكشي عبد الواحد ، العجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية ، ط1 1446/ 2006 ، ص45.

23.إسماعيل مُحَمَّد المقدم ، علو الهمة ، دار إبن حزم ، القاهرة ، ص 194 .195.
24.إبن بسام ، المصدر السابق ، ج1 ص 106.
25 . ابن حزم ، المصدر السابق ، 52 53.
26.إبن حزم ، المصدر السابق ، المصدر السابق ، 52.53.
27 . إحسان عباس ، المرجع السابق ، ص283.
28.إبن حزم المصدر السابق ، 324.
29.إبن بسام المصدر السابق ، ص105.
30. هو ملك الارمن ، وإسمه الدمستق توفي 356ه من أكثر الملوك قتالا للمسلمين في زمانه ، إستحوذ على الكثير من السواحل وإنتزعها من المسلمين قسرا ، أغار على بجيشه على مدينة حلب وأخذ اموالها وبدد شملها ، وكان لا يدخل مدينة إلا سبى نساءها وأطفالها وجعلها إصطبلا لخيوله ، وكسّر منبرها ، وأسكت مؤذنيها بخيله ورجله وطبوله ، ومات على يد زوجته التي إغتالته مع جواريها في وسط مسكنه . إبن كثير ، البداية والنهاية ، تحقيق مُحَمَّد مُحَمَّد تامر ، شريف مُحَمَّد ، مُحَمَّد عبد العظيم ، مُحَمَّد سعيد ، دار البيان العربي ، 2006 ، ج6 ص299.
31.نفسه ، ج6 ص 299.300.
32.نفسه ج6 ص300.
33.إبن كثير أبو الفداء ، المصدر السابق ، 303.
34.إبن حزم ، الاخلاق والسير ، تحقيق إيفا رياض ، دار إبن حزم ،ص116.
35.نفسه ، ص115.
36.إبن حزم ، طوق الحمامة ، ص284.
37.سورة الضحى ، الآية 11.
38.إبن حزم ، التلخيص لوجوه التخليص ، تحقيق عبد الحق التركماني ، دار إبن حزم ط1 ، 1423.2002ص52.
39.إحسان عباس ، المرجع السابق ،ص259.
40. الاخلاق والسير ، ص76.
41.نفسه ، ص 112.
42.إبن حزم ، طوق الحمامة ، ص324.
43.المقري التلمساني ، المصدر السابق ، ج2 ص 68.69.